نظرية الأدب بين حدودها الغربية وآفاقها العربية

(تصور مقترح لتأسيس نظرية للأدب العربي)

د. مديحة جابر أحمد السايح*

القسم الأول: حدود نظرية الأدب الغربية:

١- تعريف "النظرية" و"نظرية الأدب»:

١- ١- مفهوم النظرية:

"النظرية" مصدر صناعي من الفعل «نَظَرَ». ومن معانيه في المعاجم العربية: الفكر في الشيء، والتفكير، والتدبر بالقلب[١].أما المعنى الاصطلاحي فهناك عدة تعريفات للنظرية، منها:

- "مجموعة من الأفكار والمفاهيم المجردة المنتظمة علي نحو ما، وتطبق علي ميدان من المعرفة خاص"[٢].
- "تركيب عقلي مؤلف من تصورات متسقة تهدف إلي ربط النتائج بالمبادئ"[٣]
- «تركيب عقلي منسق وشامل، يفسر عددًا من الظواهر في مجال من مجالات الواقع الطبيعي أو الإنساني، ويربط بين الممارسة أو الوقائع والمبادئ أو القوانين ربطًا كليًا»[٤].

يعني هذا التعريف:«أن النظرية نسق شمولي وتجريدي، مستنبط من: استقراء المتنوع فهي له مشترك، ومن استقراء الأفراد فهي له مجموع، ومن استقراء الأجزاء فهي له كل»[٥].

يستخلص من جملة هذه التعريفات عدة ملاحظات:

- أن مكونات النظرية أوعناصرها هي مجموعة من التصورات أو المفاهيم المجردة من التفاصيل أو الجزئيات أو الوقائع، بينها علاقات متسقة على نحو معين.

* مدرس بقسم البلاغة والنقد الأدبي ،والأدب المقارن- كلية دار العلوم ،جامعة القاهرة

- أن هدف النظرية والغاية منها تفسير الظاهرة ، مثل ظاهرة سقوط الأجسام على سبيل المثال، وهي ظاهرة طبيعية، تفسرها نظرية الجاذبية الأرضية، ومثل ظاهرة أطفال الشوارع، وهي ظاهرة إنسانية، تفسرها نظرية الضعف المجتمعي القيمي والمادي.
- أن معنى «النظرية» يختلف باختلاف المجال العلمي الذي تستخدم فيه، كما تختلف سماتها وخصائصها في العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية في أنها في الأولى تتسم بالانضباط والموضوعية واليقين النسبي، بينما هي في العلوم الإنسانية أقل انضباطًا وفيها قدر من الذاتية لا تنفك عنه.
- أن النظرية قابلة بالضرورة للصواب والخطأ بما هي منظور تفسيري للظواهر.

١- ٢- مفهوم "نظرية الأدب":

يقدم منظرو النظرية الأدبية الغربية عدة تعريفات لنظرية الأدب، منها:

- تعريف رينيه ويلك أنها "دراسة مبادئ الأدب وتصنيفاته ومستوياته"[٦]. في مقابل دراسة الأعمال الأدبية المحددة التي هي مجال عمل النقد الأدبي، وفي مقابل دراسة الأدب في حركته التاريخية الذي هو مجال تاريخ الأدب. وتمثل هذه المجالات الثلاثة؛ النظرية الأدبية والنقد الأدبي وتاريخ الأدب "أنظمة ثلاثة" لدراسة الأدب كما يقول رينيه ويلك. ويمكن تفصيل هذا التعريف إلى العناصر التالية:

- مبادئ الأدب هي قوانينه وقواعده وأصوله الإبداعية.

- تتعدد تصنيفاته من حيث أجناسه وأنواعه، ومواطنه الجغرافية، ومراحله التاريخية، ومصادره، وعلاقاته بالفنون والفكر والمجتمع.

- أما مستوياته فمنها الفني ومنها اللغوي.

إذن تقدم النظرية الأدبية الغربية دراسة منهجية للأدب من كافة زواياه. وتستمد مادتها العلمية، وهي هذه المبادئ والتصنيفات والمستويات، من النقد الأدبي

وتاريخ الأدب، باعتبار دراسة الأول الأدبَ في ثباته كأعمال محددة، وباعتبار دراسة الثاني الأدبَ في حركته في المسار التاريخي.

- ويقدم الناقد الإنجليزي رامان سلدن تحديدًا لنظرية الأدب أنها "القضايا النظرية المحيطة بالأدب"[٧]. ويخصصها بأنها تلك التي يهتم بها الدارسون الأكاديميون في أقسام الدراسات الأدبية والتي تتسم بالمعرفة المتخصصة واللغة المتميزة، دون الجمهور العام الذي تتوجه إليه وسائل الإعلام؛ الصحافة والإذاعة والتليفزيون، بمناقشات أدبية عامة عن تجربة الكاتب الشخصية، والخلفية الاجتماعية والتاريخية للأعمال الأدبية، والأهمية الإنسانية للأدب، والخيال والجمال الشاعري فيه [٨]. هذه القضايا النظرية المحيطة بالأدب هي تفاصيل المبادئ والتصنيفات والمستويات التي عرف بها رينيه ويلك النظرية الأدبية في التعريف السابق.

وتجدر الإشارة إلى أن تمييز رامان سلدن بين الخطاب الخاص المتميز للنظرية الأدبية على المستويين المعرفي واللغوي والخطاب الأدبي العام للجمهور العام في وسائل الإعلام لا يعني حكمًا سلبيًا على هذا الخطاب العام، لأن هذا الخطاب يمثل سياقًا ثقافيًا عامًا ضروريًا لنضج وازدهار النظرية الأدبية، كما أنه يمثل حاضنة مبكرة لإعداد منظرين أكْفاء للأدب.

- ويقدم ديفيد بُشبندر الناقد الأسترالي تعريفًا لنظرية الأدب من زاوية قراءة الأدب، والشعر خاصة، طبقًا لعنوان الكتاب "النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر"، فيعرفها بقوله: "إن نظريات الأدب نظريات عن كيفية قراءة النصوص الأدبية"[٩]. ويفسر بشبندر هذه الكيفية بأنها "افتراضات" عن طبيعة النص الأدبي، وقيمته، وطرائق القراءة البديلة وما تسفر عنه من معانٍ مختلفة في النص، ومستويات الحكم بالقيمة الفنية التي يمكن أن تنتج عن هذه القراءات[١٠].

ويلاحظ على هذه التعريفات الثلاثة لنظرية الأدب الغربية:

أ- أنها جميعًا تعرف نظرية الأدب من جهة الموضوع الذي تدرسه أو المجال الذي تتحرك فيه، وأن هذا المجال يضيق ويتسع، كما سيأتي.

ب- أن موضوع نظرية الأدب بالتحديد ليس هو الأدب بل كل كلام نظري عن الأدب. أما الأدب نفسه فهو الموضوع الذي يدرسه النقد الأدبي. أي أن الدراسة النظرية هي مجال النظرية الأدبية، بينما الدراسة التطبيقية هي مجال النقد الأدبي.

جـ- يتفرع عن الملاحظة السابقة أن الحديث عن المدارس النقدية التي تتناول الأدب هو جزء من نظرية الأدب، في مقابل الممارسة التطبيقية لهذه المدارس التي هي من النقد الأدبي، وإن كان التداخل بينهما واقعا بطبيعة الحال؛ إذ جزء من الحديث عن المدارس النقدية يقتضي التعرض للدراسات التطبيقية، كما أن الدراسة التطبيقية تقتضي بالضرورة تناول جوانبها النظرية. لكن بيان الفارق الدقيق بينهما مطلوب لتوضيح حدود المفاهيم.

وتجدر الإشارة إلى أن الاسم الدال على هذا المجال المعرفي وهو "النظرية الأدبية" استخدم في صيغة المفرد، في حين أن مدلوله في الواقع عدد من النظريات الأدبية، باعتباره اسم جنس تتعدد أجزاؤه، وهذه الأجزاء تتشارك في كثير من عناصرها، ومن ثم جاء استخدام الاسم المفرد دالًا على الجمع في صورته التجريدية الذهنية المستخلصة من هذه الأجزاء [١١].

٢- قضايا نظرية الأدب الغربية:

٢- ١- يضيق ويتسع محتوى النظرية الأدبية الغربية في الكتب التي تحمل هذا العنوان في القضايا والمسائل التي تدرسها. فكتاب رينيه ويلك وأوستن وارين «نظرية الأدب» يُعد أكثر الكتب شمولًا واستيعابًا لمحتوى النظرية الأدبية، إذ تناول القضايا النظرية كالتعريفات ومداخل دراسة الأدب الداخلية والخارجية، فضلًا عن البحث الأدبي في الدراسات العليا باعتباره سياقًا عامًا ثقافيًا تتحرك فيه النظرية الأدبية.

بينما استخدم رامان سلدن «النظرية الأدبية» وقصد بها النظريات النقدية (الشكلية الروسية والبنيوية والماركسية.. إلخ). وكذلك فعل ديفيد بشبندر في كتابه «نظرية الأدب المعاصرة وقراءة الشعر»، ومثله تيري إيجلتون في كتابه «مقدمة في نظرية الأدب». بينما يقتصر كتاب إيمانويل فريس وبرنار مورااليس «قضايا أدبية عامة، آفاق جديدة في نظرية الأدب» على تناول قضايا نظرية فرعية رافدة لحقليْ النظرية الأدبية: الإبداع والنقد، وهي أربع قضايا: الاتصال الأدبي- الأثر الأدبي- الحمولة الثقافية للعمل الأدبي- القراءة عمل المبدع أم اكتشاف القارئ.

٢- ٢- وإذا كان موضوع النظرية الأدبية الغربية هو الدراسات التي تتناول الأدب فإن تفصيل هذه الدراسات يتوزع على حقلين كبيرين هما:قضايا الإبداع الأدبي،وقضايا النقد الأدبي، ترفدهما قضايا فرعية عامة في الدرس الأدبي. ويمكن عرض هذه القضايا تفصيلًا على النحو التالي:

أولًا: قضايا الإبداع الأدبي، وتشمل:

أ- ما الأدب ب- وظيفة الأدب.

جـ- الأجناس والأنواع الأدبية.

د- المدارس الإبداعية: الكلاسيكية- الكلاسيكية الجديدة- الرومانتيكية- الواقعية- التعبيرية.

هـ- علاقة الأدب بـ: الفكر (الأيديولوجيا)- المجتمع- الفنون الأخرى- العلوم الإنسانية.

و- الأدب المقارن.

ثانيًا: قضايا النقد الأدبي، وهي:

أ- المدارس النقدية (المناهج- الاتجاهات): الشكلية الروسية- النقد الجديد- التحليل النفسي- البنيوية وما بعد البنيوية- التحليل الماركسي- الفينومينولوجيا (الظاهراتية)- السيميولوجيا (علم العلامات)- التفكيكية- القراءة

والتلقي والتأويل- النقد السياسي- النقد النسوي- التحليل البلاغي (الصور- الأساليب- الأسطورة).

ب- تاريخ النقد الأدبي.

ثالثًا: قضايا نظرية فرعية:

أ- الاتصال الأدبي بعناصره الثلاثة: المرسل- الرسالة- المستقبل.

ب- القيمة والتقويم. جـ- السياق بأنواعه ووظائفه.

د- التقاليد الأدبية. هـ- المنظور الأخلاقي في تقييم الأدب.

٦- الاغتراب (عن المجتمع والطبيعة) (علاقة الأدب بالواقع).

٧- الحمولة الثقافية للعمل الأدبي. ٨- النصوص غير المنشورة.

٩- أثر الرقابة في عمل الكاتب. ١٠- التجريب والتجريد.

١١- أدبية الأدب.

١٢- نظريات الإبداع (المحاكاة- التعبير- الخلْق- الانعكاس).

وبطبيعة الحال تتفرع كل قضية من هذه القضايا الفرعية إلى عدد من المسائل الجزئية التي تشكل معًا عنصرًا مهمًا من عناصر النظرية الأدبية الغربية، وتغذي حقليْها الرئيسيين؛ الإبداع الأدبي والنقد الأدبي.

٢- ٣- وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من هذه القضايا الفرعية استخدمها النقاد الغربيون تحت مصطلح «النظرية»، فهناك «نظرية المحاكاة» و«نظرية السياق»... إلخ، كما أن كثيرًا من المدارس الأدبية والنقدية الغربية استُخدمت أيضًا تحت مصطلح «النظرية»، فهناك نظريات القراءة والتلقي والتأويل، والنظرية البنيوية التوليدية، والنظرية التعبيرية... إلخ[١٢]. بل إن رامان سلدن يقدم تصورًا لتنوع «النظريات الأدبية» بحسب ما تطرحه من أسئلة حول الأدب، مبنيًا على نموذج رومان جاكبسون لعناصر التوصيل اللغوي وهي:

سياق

مخاطِب (مرسل) رسالة مخاطَب

اتصال

شفرة

وقد خصَّ جاكبسون كل عنصر من هذه العناصر بوظيفة لغوية على النحو التالي:

إرشادية

انفعالية شعرية طلبية

شارحة

فوضع رامان سلدن ما يقابل عناصر هذا النموذج في إطار النظرية الأدبية:

سياق

كاتب كتابة قارئ

شفرة

ثم وضع مقابل الوظائف اللغوية ما يركز عليها من النظريات الأدبية:

الماركسية

الرومانسية الشكلية

البنيوية التركيز على القارئ [١٣].

يقول سلدن: «فالنظرية الرومانسية تركز على عقل الكاتب وحياته، ويركز نقد القارئ (النقد الفينومينولوجي) على تجربة القارئ، أما النظريات الشكلية فتركز على طبيعة الكتابة نفسها معزولة عن كل ما عداها. وينظر النقد الماركسي إلى السياق الاجتماعي والتاريخي بوصفه شيئًا أساسيًا. وتلقي النظرية الأدبية للبنيوية بثقلها على الشفرات التي تستخدمها في بناء المعنى. ومع هذا فإن كل مدخل لا يتجاهل - في أحسن حالاته - بقية الأبعاد من عملية التوصيل الأدبي...»[١٤]. فهناك إذن النظرية الرومانسية والنظرية الماركسية والنظرية الشكلية والنظرية البنيوية ونظرية القارئ.

يتضح من هذا العرض لمحتوى النظرية الأدبية الغربية أنها أوسع إطار نظري يضم القضايا التي تُدرَس في إطار الأدب وتاريخه ونقده. وهي بذلك أعم من النقد الأدبي وتاريخ الأدب لأنهما جزء منها.

٣- وظيفة نظرية الأدب الغربية:

تتعدد «نظريات الأدب» - كما سبقت الإشارة- بتعدد عناصر عملية التوصيل؛ المرسل والرسالة والمستقبل والسياق الذي تتم عملية التوصيل من خلاله، إلى نظريات خاصة بالكاتب وبالنص وبالقارئ وبالسياق. في ضوء هذه الحقيقة تتعدد وظائف النظرية الأدبية الغربية:

الوظيفة الأولى: وهي فائدة عملية مباشرة، تيسير الصعوبات التي قد يجدها القارئ في فهم لغة الأدب. فافتراض صعوبة لغة الأدب صحيح، كما يقول ديفيد بُشبندر، لكن يمكن بالاهتمام والدأب - كما يقول- أن نشق طريقنا في البنية اللفظية للقصيدة بيقين نسبي إن لم نستطع أن نشقه بسهولة تامة. ثم يقول: «إن الاطلاع على نظريات الأدب المناسبة إحدى وسائل بلوغ هذه الغاية»[١٥].

الوظيفة الثانية: تشكيل وعي نقدي جديد لدى دارس الأدب، باعتبار النظرية مؤثرة في عملية القراءة والكتابة، لما تتضمنه من قضايا نظرية محيطة بالأدب[١٦]. ومن القضايا النظرية التي تناقشها نظرية الأدب وتضفي بها حيوية جديدة على علاقة الدارسين بالأدب طرائقُ القراءة والنظر إلى الأدب، والتي تتجاوز القراءة «البريئة» والعفوية للأدب إلى القراءة العميقة والمؤثرة في معنى النص [١٧].

ويدافع بعض النقاد عن أهمية نظرية الأدب في عملية القراءة ضد من يتهمونها بالقضاء على عفوية استجابتهم للأعمال الأدبية بأن هذه الاستجابة العفوية للأدب، وكذلك الخطاب العفوي عن الأدب، يعتمد اعتمادًا لا واعيًا على التنظير النقدي الذي خلفته الأجيال السابقة، مثل الحديث عن الشعور والخيال والعبقرية.... إلخ، إذ هي قضايا نظرية تحولت بفعل الزمن إلى جزء من لغة الإدراك العادي [١٨].

الوظيفة الثالثة: يتجاوز بعض النقاد الغربيين وظيفة النظرية الأدبية، وهي إثراء الممارسة النقدية وإضاءتها في تفسير الأعمال الأدبية تفسيرًا متماسكًا؛ يتجاوز هذه الوظيفة إلى وظيفة أكثر عمقًا إذ يربطها بالمجتمع وبالبيئة الثقافية الأيديولوجية، إذ يرى أن النظرية الأدبية وليدة هذه البيئة الثقافية، ووليدة «العرف المؤسساتي تحديدًا»، ومن ثم فإن وظيفة النظرية الأدبية هي الكشف عن فهم للأدب بوصفه «مؤسسة إنسانية»، وإلى كشف «بنى الخطاب وأعرافه» التي أعانتها -أعانت الأعمالَ الأدبيةَ المدروسةَ- على امتلاك ما تمتلكه من معنى, ومثل هذا الطرح يفتح النظرية على البيئة الثقافية المؤسساتية ويكشف آليات العرف وأهمية المؤسسة في تكوين المفاهيم العلمية وتوجيهها، وكذلك المنهجيات التي تفرزها الأعراف المؤسساتية وتتبعها[١٩].

والمقصود بـ «البيئة الثقافية الأيديولوجية» جماع العناصر المشكِّلة للخصوصية الثقافية للمجتمع الذي تولد فيه النظرية، وهي: الدين، والمسار التاريخي والمجتمعي، والظرف الحضاري العام لهذا المجتمع. والمقصود بـ «البيئة الثقافية المؤسساتية» المؤسسات المختصة بالثقافة كالأكاديميات، والمؤسسات الثقافية الرسمية والأهلية ومنها المجلات والدوريات، والتجمعات الثقافية. والمقصود بـ «الأعراف المؤسساتية» القيم والمعايير والمناهج والأطر الثقافية والمفاهيم التي تنتجها هذه المؤسسات وتشيعها وتثبّتها.

الوظيفة الرابعة: هي وظيفة «إنسانية» تتجاوز مهام الدرس الأدبي المتخصص إلى أفق الحفاظ على الإنسانية، «باعتبار الأدب تعبيرًا عن هذه الإنسانية في مختلف العصور والآفاق. فالنظرية الأدبية الغربية - باتجاهها بالأدب نحو تحقيق رسالته كتعبير عن هذه الإنسانية- تهدف إلى الحفاظ على هذه الإنسانية في محاولتها للبقاء في مواجهة عوامل الاندثار والتحلل والنسبية [٢٠].

وتؤدي النظرية الأدبية الغربية هذه الوظيفة بشكل غير مباشر من خلال طبيعة النظرية نفسها، باعتبارها منظومة من المبادئ والقيم المستمدة من نقد الأعمال الأدبية المحددة، مستعينة بالتاريخ الأدبي. وهي بذلك تتخطى الحدود الجغرافية

والفواصل الزمنية، وذلك في محاولة مستمرة لإزالة الحواجز اللغوية التي تفصل بين الآداب القومية، والفوارق في استخدامات اللغة التي تنشأ من تطورها التاريخي، بحيث تصل إلى ما هو مشترك بين الآداب القومية (الغربية) في الأحقاب التاريخية المتتالية»[٢١]. وتحقق النظرية الأدبية الغربية هذه الأهداف عن طريق الترجمات، والتعمق في فقه اللغات، وتحقيق النصوص، والدراسات الأدبية المقارنة، والنظرية الأدبية [٢٢].

الوظيفة الخامسة: هي وظيفة أدائية أوإجرائية، إذ يعرف البعض النظرية الأدبية بأنها «سلسلة من الأسئلة والأجوبة تحفز الذهن وتنمي طاقة الفكر وتعكس زمان أصحابها وبيئتهم العقلية. وأرقى ما في النظرية أنها لا تقدم دائمًا حلولًا متناغمة، فقد ينتهي التحليل من دون أن يحسم الباحث الاحتمالات المتعارضة التي تواجهه»[٢٣].

ومن الواضح أن تحفيز الذهن وتنمية طاقة الفكر هو خارج عن موضوع النظرية الأدبية، وأنه ثمرة من ثمرات البحث فيها. أما عكس النظرية زمان أصحابها وبيئتهم العقلية فيمكن وصفه بأنه «ما وراء النظرية الأدبية». وأما بقاء الاحتمالات المتعارضة في البحث دون حسم فإنه يبرز خاصية من خواص النظرية الأدبية وسمة من أبرز سماتها وهي أنها بحث مفتوح ولا نهائي، إذ إنها بتعدد روافدها تظل مفتوحة دائمًا على إجابات محتملة وأسئلة محتملة كذلك.

٤- تاريخ نظرية الأدب الغربية:

بتتبع الكتابات حول النظرية الأدبية الغربية يمكن التمييز بين مراحل ثلاث لتاريخ هذه النظرية: مرحلة التفكير النظري- مرحلة النشأة- مرحلة النضج والازدهار.

٤- ١- مرحلة التفكير النظري:

وهي مرحلة تمتد تاريخيًا إلى ثقافة اليونان والهند والحضارة الإسلامية، حيث نبتت جذور التفكير في محتوى النظرية، أي القضايا والمسائل التي تتناول الأدب وتدور حوله، والذي تولد –أي هذا التفكير- بسبب «سؤال الموضوعية والقوانين، وبحثًا عن تفسير للإعجاب بالأعمال الأدبية وتقنين هذا التفسير»[٢٤].

ويمكن القول أن الجهد النقدي القديم في الحضارات اليونانية والهندية والإسلامية، خاصة الجهد التنظري المستخلص من الدرس التطبيقي كله، يمثل عناصر من مكونات النظرية الأدبية، كلٌ في ثقافته، وبحسب السقف المعرفي لتلك الحضارات من حيث القضايا النظرية المطروحة، وإن لم تستخدم - بالطبع- مصطلح «نظرية الأدب» أو «النظرية الأدبية» الذي هو ثمرة تطورات متلاحقة في العصر الحديث.

٤- ٢- مرحلة النشأة:

وهي المرحلة التي تمتد من القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين في أوربا، والتي شهدت نشأة العلوم الإنسانية في سياق تطور العلم والمنهجية في العلوم الطبيعية.

فقد ارتبطت نشأة النظرية الأدبية في العصر الحديث بنشأة العلوم الإنسانية في القرن ١٩ في سياق سعي هذه العلوم للضبط والموضوعية والمنهجية مثل العلوم الطبيعية. وقد شكلت نشأة العلوم الإنسانية مظهرًا للتقدم الذي حققته العقلانية التجريبية في تاريخ الثقافة الأوروبية، باعتبار سعي العلوم الإنسانية وتطلعها العلمي للمعاصرة، وباعتبار اشتراكها في بذورها الأولى مع علوم البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة [٢٥].

٤- ٣- مرحلة النضج والازدهار:

تتابعت خطوات هذه المرحلة في القرن العشرين:

- ففي عام ١٩١٧ اجتاح التحول النظريةَ الأدبية - كما يقول تيري إيجلتون- بسبب مقالة الناقد الروسي فيكتور شكلوفسكي التي أحدثت تحولًا عميقًا في معنى الأدب والقراءة والنقد في دائرة المتخصصين [٢٦].

- بدأ وصف النظرية الأدبية مع الشكليين الروس، وكانت الشكلية الروسية قد ازدهرت في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين. ثم استمر هذا الوصف في أواسط القرن العشرين مع جهود فرديناند دي سوسير سنة ١٩٥٠، ومع صدور كتاب «نظرية الأدب» لرينيه ويلك وأوستن وارين في طبعته الأولى

عام ١٩٤٨، وقبله صدور كتاب «النظرية الأدبية» للناقد الروسي يوريس توماشفسكي كما أشار رينيه ويلك وأوستن وارين في مقدمة كتابهما [٢٧].

- نمت النظرية الأدبية نموًا واسعًا في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين حين بدأ طلاب الأدب في إنجلترا بالاشتغال بالتحديات المستمرة لما هو إجماع للرأي العام (في مجال الأدب)، خاصة مع «المنتجات الثقيلة» -كما يصفها رامان سلدن- التي وفدت إلى إنجلترا من خارجها من القارة الأوربية مثل الإنتاج الفكري والنقدي للمنظرين الألمان والعقلانيين الفرنسيين[٢٨].

ولا تزال النظرية الأدبية الغربية تستوعب في جنباتها المزيد من التنظير النقدي والرؤى المتجددة حول الأدب باعتبارها أفقًا مفتوحًا على كل الأفكار والآراء التي تمس موضوع الأدب.

٥- استمداد نظرية الأدب الغربية:

تمثل النظرية الأدبية الغربية تجليًا من تجليات النضج المعرفي الغربي الذي يتمثل في تلاقح التخصصات العلمية واستمداد العلوم بعضها من بعض، كما يتمثل في التجريد الذي يَستخلص من الجزئيات والتفاصيل كليات ورؤى شمولية تغذي التفاصيل، في الوقت الذي ترفدها فيه هذه التفاصيل، في علاقة جدلية مثمرة تدفع بهذا المجال المعرفي بشكل مستمر خطوات للأمام.

وتختلف طرائق الاستمداد المعرفي للنظرية الأدبية من التخصصات المختلفة ودرجاتُ هذا الاستمداد. فبعض هذا الاستمداد يكون في المفاهيم والرؤى الفلسفية الكامنة وراء المسائل والقضايا، وبعضه يكون إجراءات وطرائق نظر عملية في تناول المسائل والقضايا، وبعضه - وبحكم وحدة المجال- يكون في المسائل والقضايا نفسها.

وتتنوع المجالات المعرفية التي تستمد منها النظرية الأدبية بعض مفاهيمها وإجراءاتها وقضاياها؛ مثل: الفنون غير الأدبية- العلوم الإنسانية (التاريخ- الفلسفة، ومنها فلسفة الجمال والفن- الاقتصاد- علم الاجتماع- علم النفس)- قوانين العلوم الطبيعية. ومن ثم فلا يمكن القول أن قضايا النظرية الأدبية الغربية

هي قضايا أدبية خالصة تستمدها النظرية من حقل الأدب فقط إبداعًا وتاريخًا ونقدًا- وهي المجالات الثلاثة التي حددها رينيه ويلك باعتبارها «أنظمة الدرس الأدبي» كما سبق القول- لأن هذه النظرية في مسارها التاريخي طوال القرن العشرين قد تأثرت بمجالات متنوعة خارج حقل الأدب.

ويمكن استعراض بعض صور هذا الاستمداد على النحو التالي:

٥- ١- الاستمداد من علم الاقتصاد:

استمداد مفهوم «التعبيرية»،وهو أحد مفاهيم الإبداع الأدبي الذي يمثل حجر الزاوية في النظرية التعبيرية، إحدى نظريات الإبداع الأدبي، مع نظريات المحاكاة والانعكاس والخَلْقَ، «وهي النظرية التي فسرت الأدب بوصفه فيضًا للعواطف وتعبيرًا عن الذات الفردية»[٢٩]. استمداد هذا المفهوم من الشعار الاقتصادي «دَعْهُ يعمل دَعْهُ يمرّ» في صورة «دعه يعبر عن نفسه»[٣٠].

٥- ٢- الاستمداد من قوانين العلوم الطبيعية:

مثل الخطاب النقدي عند سانت بيف وهيبوليت تين اللذين قالا بأن الأدب انعكاس حتمي للبيئة والعوامل التاريخية. فهذا المفهوم «مثال للبحث عن قوانين دقيقة وصارمة تماثل قوانين الحتمية في عالم الطبيعة»[٣١]. هذه النظرية من نظريات الإبداع الأدبي وهي نظرية الانعكاس «ليست تفسيرًا خاصًا بالأدب، بل هي دلالة الفلسفة المادية الجدلية على تقديم العالم المادي على العقلي. والأمر نفسه يمكن ملاحظته في الشكلية الروسية والنقد الجديد والبنيوية، حيث يبدو الانبهار بالعلم الطبيعي والتكنولوجي، والدعوة إلى الأخذ بموضوعيته وتجريبيته»[٣٢].

٥- ٣- الاستمداد من النقد الأدبي:

في النقاش الذي أداره رينيه ويلك حول مصطلح «النظرية الأدبية» والذي فضله على مصطلحي «البحث الأدبي» و «فقه اللغة»؛ لدلالة الأول على البحث الأوَّلي عن المادة دون الاهتمامات الدقيقة الخاصة بتفسير النصوص ودراسة الشخصيات والتقويم، ولاختصاص الثاني، خاصة في مراحله الأخيرة، بعلم

اللغة ودراسة اللغات في أشكالها القديمة [٣٣]؛ في هذا النقاش ذكر ويلك أن نظرية الأدب «ينبغي لها أن تشمل نظرية النقد الأدبي ونظرية تاريخ الأدب اللازمين لها»[٣٤]. فالنقد الأدبي لازم للنظرية الأدبية، ورافد أساسي من روافدها.

وتمثل العلاقة بين نظرية الأدب وقراءة الأدب الوجه الآخر لعلاقة نظرية الأدب بالنقد الأدبي، وذلك أن النظرية الأدبية -أو النظريات الأدبية- هي في الحقيقة نظريات في كيفية قراءة النص الأدبي. فالنظرية الأدبية «تقدم فرضيات عن طبيعة النصوص الأدبية، وادعاءات بشأن قيمة تلك النصوص أو الطريقة التي يجب أن تُقرأ بها. ويمكن أن تدلنا على نقاط القوة والضعف في القراءة بطريقة معينة. ويمكن أن تقدم لنا قراءات بديلة تكشف في النص معاني مختلفة»[٣٥].

وهذه الطرائق المتنوعة في قراءة النصوص الأدبية هي التي تشكل مناهج النقد الأدبي ومدارسه التي تتنوع بين طرائق تركز على عمل المبدع في النص واختياراته التعبيرية، إلى مناهج تركز على لغة النص الأدبي بعيدًا عن أي سياق محيط، ومناهج تتناول بالتحليل دور القارئ في النص وآليات القراءة وشروطها ... إلخ.

وتتجلى علاقة النظرية الأدبية بالنقد الأدبي واستمدادها منه من خلال الغاية من القراءة، إذ إن تحديد الغاية من القراءة أو الهدف منها هو تحديد لنظرية الأدب التي يُقرأ النص من خلالها.

فقراءة الأدب بهدف المتعة الفنية سيقود إلى نظرية الإيقاع في الشعر، وسوف تعزز هذه القراءة استجابة عاطفية وغير تحليلية غالبًا لدى القارئ، وسيعتمد معنى النص على مقدار المتعة التي يشعر بها القارئ. في حين أن القارئ الذي يهدف إلى معرفة علاقة النص بالسياق التاريخي ستقوده هذه الغاية إلى نظرية السياق وستكون متعته بالعمل ثانوية، وستكون رؤيته للعمل من خلال الطريقة التي يعكس بها العمل أحداث عصره وعلاقته بهذه الأحداث[٣٦].

كما يتجلى استمداد النظرية الأدبية من النقد الأدبي في مناقشتها قضايا هي من صميم النقد الأدبي، مثل: وظيفة النص الأدبي اجتماعيًا وثقافيًا- أدبية

الأدب، أي ما الذي يجعل لغة الأدب وبنيته أدبيتين- علاقة النص بالواقع تمثيلًا أو تشويهًا أو إنكارًا [٣٧].

٥- ٤- الاستمداد من تاريخ الأدب:

سبقت الإشارة إلى أن تاريخ الأدب من الروافد الأساسية للنظرية الأدبية الغربية. ويمثل ثراء تاريخ الأدب بالقضايا النظرية مصدر ثراء في نفس الوقت للنظرية الأدبية، ليس فقط لأن قضايا تاريخ الأدب تدخل في صميم اهتمام النظرية الأدبية بل لأنها تتشابك مع الروافد الأخرى التي ترفد النظرية الأدبية، خاصة رافد النقد الأدبي.

من بين القضايا النظرية في تاريخ الأدب التي تغذي النظرية الأدبية:

أ- مفهوم التطور:

تناقش نظرية الأدب مفهوم التطور على أساس أن الأدب «نظام كامل من الأعمال، تتغير علاقاتها فيما بينها بصفة دائمة وذلك مع ظهور أعمال جديدة، وأنه ينمو ككل متكامل متغير»[٣٨]. إذن يدرس تاريخ الأدب الأعمال الأدبية لا باعتبارها مفردة بل باعتبارها «نظامًا» ذا علاقات تتغير ويعاد تشكيلها بشكل مستمر مع ظهور أعمال جديدة. أي أن التطور عملية مركبة ومفتوحة ولا نهائية، بحكم تجدد الإبداع وتشابك العلاقات وتكامل الأعمال.

هذا المفهوم للتطور يستبعد بالضرورة دراسة الأعمال المفردة، ودراسة تغير العصر دون تأثير على الإبداع الأدبي، ويستبعد كذلك دراسة سلاسل الأعمال الفنية في تتابعها الزمني دون رصد علاقاتها بما يجاورها من أعمال.

ولابد مع دراسة التتابع الزمني والعلاقات بين الأعمال من وجود معيار أو قيمة يقاس إليها هذا التطور، لكن هذه القيم والمعايير تستمد من الواقع ومن العملية التاريخية بشكل مستمر، ومن ثم فهي قيم ومعايير متجددة وليست ثابتة[٣٩].

ويرتبط هذا المفهوم للتطور بالفلسفة التاريخية التي ترى أن تاريخية ظاهرة ما، أي تطورها، يعني «كيفية عمل قوانين تطورها الخاصة وفق قوانين تطور

عامة»[٤٠]. هذه القوانين العامة مرتبطة بالواقع الاجتماعي وحركة التاريخ. وبمقتضى هذا المفهوم للتطور في هذه الفلسفة التاريخية، ووفقًا للمثالية الجدلية التي أسسها فريدريك هيجل (١٧٧٠- ١٨٣١م) «فإن كل الظواهر والأشياء في تغير وتطور دائمين، وإن التناقض هو قانون تغيرها وتطورها، لأنه -أي هذا التناقض- هو الأساس في بنائها الداخلي، كما أنه الأساس في حركتها. ولهذا كان المنهج الجدلي أداة فذة لدراسة الظواهر والأحداث والأشياء بمعرفة طبيعة بنائها والكشف عن حركة تطورها»[٤١].

ويوضح أصحاب الفلسفة المثالية مفهوم «الجدلية» هذا بأن «كل شيء يحمل التناقض في قلبه، وتنمو في داخله عناصر تحيله إلى شيء جديد. ولا يجمد هذا الجديد بل يحمل في قلبه -بدوره- تناقضه الذي يجعل منه شيئًا جديدًا أيضًا، وهكذا. إن كل شيء كان شيئًا آخر ثم هو في حركته التطورية يصير شيئًا جديدًا، وذلك لأن كل شيء، من ظاهرة طبيعية أو إنسانية، ومن حدث أو مرحلة تاريخية، ومن فن من الفنون أو فكرة من الأفكار، عملية متطورة»[٤٢].

ورغم ما يمكن أن يُدار من نقاش حول كون التطور راجعًا في الأساس إلى وجود تناقض داخلي في الظاهرة أو الفن أو الفكرة، لأن هذا ليس صحيحًا تمامًا، فإن الثابت أن الظواهر والفنون والأفكار تحمل عوامل لنموها واستمرارها، ولا يلزم أن يكون هذا العامل هو التناقض الداخلي. كما أن «صورة» التطور لا تكون بالضرورة «تحولًا» إلى شيء جديد، بل يمكن أن تكون نموًا واتساعًا، أو تغيرًا في بعض الجوانب دون بعض، وإن كانت هذه الصور جميعًا تحمل بالضرورة عناصر أساسية من الصور الأولى.

ب- عمل المؤرخ الأدبي:

وهو رصد حركة العمل الأدبي الواحد عبر التاريخ، وعمليات التفسير والنقد والتذوق التي تعاورت عليه - متابعة نمو الأعمال الأدبية بتبويبها في مجموعات من حيث الكتَّاب والأجناس الأدبية والأسلوب والتقاليد اللغوية- دراسة تطور سلسلة من الأعمال الفنية[٤٣].

جـ- مناهج دراسة تاريخ الأدب:

هناك منهجان؛ الأول: دراسة الأدب كوثيقة لتصوير التاريخ القومي والاجتماعي. والثاني: دراسة تاريخ الأدب كفن، ويقتضي فهمَ حقيقة التطور التاريخي لفن الأدب.

وتكتنف هذا الاتجاه الأخير، وهو مهمة التاريخ الأدبي الحقيقية، عدة صعوبات؛ منها: عدم تطوير النظرية الأدبية «مناهجَ تمكن من وصف العمل الفني كمجرد نسق من الرموز» اكتفاءً بالمعايير البلاغية القديمة، أو باتجاه لغة وجدانية تصف أثر العمل الفني على القارئ دون الارتباط الحقيقي بالعمل ذاته[٤٤]. ومنها الاعتقاد بعدم إمكان «إعداد أي تاريخ للأدب إلا في إطار التعليل المستمد من نشاط إنساني آخر»[٤٥]. ومنها الصعوبة التي تكمن في مفهوم تطور فن الأدب ككل، بعيدًا عن التاريخ الاجتماعي وسِيرَ الكتَّاب وتناول الأعمال المفردة [٤٦].

د- دراسة المصادر والمؤثرات:

أي العلاقات بين الأعمال الأدبية، باعتبارها تمهيدًا لكتابة التاريخ الأدبي لفن الأدب. وهي في الأساس دراسة في النقد الأدبي، يتم فيها دراسة تأثر الأعمال الأدبية بعضها ببعض، برصد أوجه التشابه والاختلافات، وتشابه الرؤى الفنية وراء الأعمال الأدبية [٤٧]. ويشترط رينيه ويلك أن تكون أوجه التشابه حقيقية، أي ليست غامضة يُستدل بكثرتها على وجود تشابه، وأن تكون ثابتة التأثر بالمصدر لا أن يكون كلاهما متأثر بمصدر مشترك.

ويقتضي تحقيق هذين الشرطين في رصد المتشابهات أو التأثيرات بين الأعمال الأدبية معرفة واسعة وعميقة بالأدب، كما يقتضي أن يكون التشابه أو التناظر نسقًا معقدًا لا مجرد تشابه في كلمة أو عنصر مفرد، فضلًا عن أن تكون من الأشياء المتعارف عليها كالتعبيرات المسكوكة والمجازات المعادة أو أوجه الشبه الناتجة عن موضوع مشترك [٤٨].

ولتحليل العلاقات بين الأعمال الأدبية- أو التناص بمصطلح نقاد الأدب، أو السرقات بمصطلح البلاغيين العرب القدماء- لابد أن يُنظر إلى العملين، أو الأعمال، كَكُلَّيْن متكاملين وفي موقعهما في إطار التطور الأدبي لا كعملين مفردين منعزلين، لأن ذلك يؤدي إلى تفتيت الأعمال الأدبية إلى قطع صغيرة. و هذه الطريقة في تحليل علاقات التشابه والاقتباسات أو السرقات والأصداء، هي أداة أولية متواضعة،لأنها تثبت على الأكثر حقيقة العلاقة فقط، تعقبها مستويات أخرى من التحليل تبلغ حد التعقيد الذي يناسب تعقد العلاقات بين كُلَّين متكاملين [٤٩].

وترتبط قضية تحليل علاقات الأعمال الأدبية ارتباطًا وثيقًا بمفهوم أصالة الإبداع أو الخلق الفني. فحقيقة الإبداع أو الأصالة ليست في مخالفة التقاليد الأدبية المستقرة، بل يكون مناط الأصالة في هيكل العمل الأدبي أو مادته أو حبكته. إن جوهر الأصالة متعلق بالقدرة على التجديد من خلال التقاليد -لا بمخالفتها- وبالقدرة على توظيف المادة الفنية بإعادة تشكيلها في صورة جديدة. ويكون الإبداع الفني طبقًا لهذا المفهوم أدل على قوة الملكة الإبداعية. يقول رينيه ويلك: «إن العمل من خلال تقليد معين واستخدام آلاته ينسجمان تمامًا مع القوة العاطفية والقيمة الفنية»[٥٠]. إذن الإبداع يكون في الالتزام بالتقاليد والهيكل الفني من حبكة أو إطار مألوف مع التجديد في داخل هذا الهيكل الفني، وفي المادة بإعادة تشكيلها.

هـ- الموضوعات التي يُدرس تطورها في إطار تاريخ الأدب: ومنها:

- سلسلة أعمال الكاتب كاملة وفقًا للعمل الأكثر نضجًا وقياسًا إليه.

- تطور سمة فنية معينة عند كاتب، أو في عصر، أو في أدب أمة، مثل تطور الصور أو العبارة الشعرية أو إيقاع النثر.

- تطور موضوعات معينة، مثل دراسة تطور صيغ الحكايات أو بعض المفاهيم المتغيرة كمفهوم المأساة. لكن هذا اللون من دراسة تطور الموضوعات أقل الدراسات التاريخية أدبيةً.

- تطور الأجناس الأدبية، وتطور الموروث الشعبي. ومما يُدرس في تطور هذه الأجناس هجرة الموضوعات والمكونات بين الأجناس الأدبية [٥١].

و- دراسة العصور والحركات الأدبية:

يمثل تحديد العصر الأدبي واحدة من المشكلات التي يتناولها تاريخ الأدب وتنظِّر لها النظرية الأدبية الغربية. فتقسيم العصور الأدبية بناءً على التقسيمات السياسية؛ تاريخ الملوك أو الثورات السياسية أو الاجتماعية، لم يعد مقبولًا. وقد طرح منظرو الأدب الغربي أساسًا صحيحًا لتقسيم العصور الأدبية هو المعايير الفنية، «فليس للتاريخ الأدبي أن يقنع بقبول مخطط تم التوصل إليه على أساس مواد متنوعة ولها أهداف مختلفة. ولا ينبغي أن يفهم الأدب على أنه انعكاس سلبي أو صورة من صور التطور والاجتماعي أو حتى الفكري للإنسان. وعلى هذا فإن العصر الأدبي ينبغي أن يحدد على أساس معايير أدبية [٥٢].

ذلك أن تقسيم العصور الأدبية بناء على أسس خارج نطاق الأدب، واستخدام مصطلحات مثل: «الإصلاح الديني» المستمد من التاريخ الكنسي، أو «المذهب الإنساني» المستمد من تاريخ البحث، و«النهضة» المستمد من تاريخ الفن، و«الكومنولث» أو «عودة الملكية» المستمدين من أحداث سياسية محددة... كل هذه الألفاظ المستمدة كأوصاف للعصور هي أوصاف مختلفة وغير مستقرة، وتقدم «خليطًا لا يمكن تبريره من المسميات السياسية والأدبية والفنية»[٥٣].

ويتوقف منظرو الأدب الغربي عند مفهوم «العصر» نفسه، فيعرفه رينيه ويلك بأنه «قسم من الزمن يحكمه نظام من المعايير والمستويات والأعراف الأدبية، التي يمكن تتبع بدايتها وانتشارها وتنوعها وتكاملها واختفائها»[٥٤]. وطبقًا للأساس الفني الذي اختاره ويلك لتقسيم العصور الأدبية، وهو المعايير الأدبية، يكمن التحدي الحقيقي في هذا التعريف في تحديده هذه «المعايير» و«الأعراف» الأدبية وتصنيفاتها، والتي يتم استيفاؤها بالضرورة من الأعمال الأدبية في هذا القسم المحدد من الزمن. كما أن تحديد بدايتها - وهي ليست بداية حاسمة بل

هي تحول أو تطور لمعايير وأعراف سابقة طبقًا لمفهوم هيجل للتطور الذي سبق بيانه- وتحديدَ انتشارها وتنوعها وتكاملها واختفائها أو تحولها إلى أعراف جديدة ؛ يستلزم معرفة واسعة زمانًا ومكانًا وعميقة فنيا بالأعمال الأدبية، بل يقتضي ابتداءً تحديد مفهوم «المعيار الأدبي» و«العرف الأدبي» حتى يمكن اعتماده أساسًا للتقسيم.

ومن ناحية أخرى فإن الأعمال الأدبية التي تقع في حيز هذه الشريحة الزمنية لا يمكن أن يحقق أحدها هذه المعايير تحقيقًا كاملًا. ومن ناحية ثالثة فإن مهمة تاريخ الأدب ستكون «متابعة التغيرات من نظام معايير إلى آخر»[٥٥].

وتتعدد تفسيرات التطور أو التغير في العصور الأدبية، منها:

- أن اضمحلال عرف أدبي وظهور عرف أدبي جديد يكون نتيجة وصول العرف الأول إلى حالة من الإنهاك تتطلب ظهور عرف جديد. هكذا يفسر الشكليون الروس عملية التطور الأدبي، إذ يرون «أن أفانين الصفة الشعرية التي تكون فاعلة في عصرهم (أو في عصر ما) تصبح شائعة ومبتذلة لدرجة أن يصبح القراء الجدد ذوي مناعة ضدها ويطلبون شيئًا مختلفًا، شيئًا من المفترض أن يكون مضادًا لما سبق»[٥٦].

وهذا التفسير - كما هو واضح- يحمل مفهوم التطور الذي تبنته الفلسفة المثالية الجدلية التي أسسها هيجل كما سبق. كما يلاحظ أن هذا التطور ينطبق على «أفانين الصفة الشعرية» أي أدوات التعبير الفني وعلى الألفاظ والموضوعات وحتى الأجناس الأدبية.

- ومن هذه التفسيرات: ظهور جيل جديد يُحدث تغييرًا أدبيًا نتيجة ظروف أو حقائق اجتماعية وتاريخية يمرون بها، كالثورة الفرنسية أو الحرب العالمية، ويكونون جميعًا في سن قابلين فيها للتأثر بهذه الأحداث إلى حد إحداث تغيير في الأعراف أو المعايير الأدبية [٥٧].

- وقد يكون التغيير الأدبي ناتجًا عن تأثر بأعمال ناضجة لأدباء كبار[٥٨].

القسم الثاني: آفاق نظرية الأدب العربي:

١- أهداف وضع نظرية أدبية عربية:

١-١- من خلال الاستعراض السابق لحدود النظرية الأدبية الغربية يمكن القول: إن الأدب العربي في حاجة إلى وضع نظرية أدبية ترسم صورة شمولية كلية مُجردة لهذا الأدب، باستخلاص قوانينه ونظامه الأدبي من خلال دراسته في ثباته وحركته على خط الزمن، مستصحبة الفترات السابقة ومؤسسة لرؤية مستقبلية.

وبلا شك فإن الدرس الأدبي العربي أكثر ثراء وتدفقًا من هذا التصور الأولى لنظرية أدبية، سواء في قضاياه النظرية أو في ممارساته التطبيقية أو في خلفياته المعرفية، في مسار تاريخي طويل (أكثر من أربعة عشر قرنًا) ومتعرج في منحيات صعود وهبوط بحسب السياق الثقافي/ التاريخي الذي مر به هذا الدرس. لكن هذا المقترح بتأطير الدرس الأدبي العربي بإطار نظري أوسع هو نظرية للأدب العربي يهدف إلى تحقيق الأهداف التالية، بالإضافة إلى ما سبق بيانه من وظيفة نظرية الأدب الغربية:

أ- رصد قوانين الأدب العربي في إطار كلي من خلال دراسة تاريخ الأدب العربي [٥٩].

ب- لما كانت النظرية الأدبية هي أوسع إطار نظري للدرس الأدبي فإن وضع نظرية للأدب العربي يؤدي إلى جمع وتصنيف وتنظيم المعرفة الأدبية العشوائية المتراكمة عبر قرن أو أكثر من الزمان (القرنين ١٩، ٢٠) والتي تفتقد للتنظيم والتبويب والتصنيف، ثم تقديم هذه المعرفة المنظمة في حقل الدراسات الأدبية لطلاب العلم من طلبة الجامعات والمتخصصين، باعتبار هذا الجيل هو مرتكز أية أهداف مستقبلية. ومن ناحية أخرى تؤدي هذه المعرفة المنظمة إلى تحبيب هذا الجيل في الأدب وتقريب درسه لهم وبناء الوعي بأهميته، خاصة مع وجود هذه الحالة الظاهرة من النفور من الأدب ودرسه لدى هذا الجيل. كما تؤدي هذه المعرفة العلمية المنظمة إلى استيعاب المتخصصين لهذا الحقل

المعرفي بوصفه منظومة معرفية متكاملة (تضم كإطار نظري أوسع: تاريخ الأدب والنقد الأدبي والأدب المقارن)، بما يدعم ثقة الطلاب في ثقافتهم ويضمن إقبالهم عليها نتيجة وضوح حدودها ومعالمها في أذهانهم. وتقتضي عملية التنظيم المعرفي هذه جهدًا هائلًا لإنجازه، خاصة مع حالة ضعف الوعي بضرورة هذه الخطوة ودورها في تحقيق أو إنجاز نظرية للأدب العربي.

جـ- يفتح هذا التنظيم المعرفي للدرس الأدبي العربي المجال لاستكمال الناقص ومراجعة الأخطاء العلمية في المفاهيم والعلاقات والمعلومات وغيرها، وبيانها وتصحيحها، والتطوير البحثي من خلال ذلك كله، مع وضع اليد على معوقات النمو ووضع خطط وآليات لتنمية الأدب إبداعًا ونقدًا.

د- تصفية الدرس الأدبي العربي من كل التفاصيل والزوائد، والشوائب، والخروج بقوانين وقواعد وأصول كلية من هذا التراكم المعرفي، يسمح بتأسيس رؤية جديدة للأدب العربي إبداعًا ودرسًا، ومن ثم يسمح ببناء منهج سليم لـ «التربية الأدبية» يهيئ الجيل لمرحلة من الإبداع الأدبي والنقدي أكثر أصالة وتميزًا وانفتاحًا من الحالة الراهنة.

هـ- وضع كل دراسة أدبية في موضعها من هذه المنظومة الدرسية الأدبية، مما يعطيها قيمتها ويمكِّن من الانتفاع بها. وهذا هو المقصود - كان- بالوصف الذي سبق للدراسات الأدبية العربية بالعشوائية، إذ هو حكم لا على الدراسات الأدبية في ذاتها بل على موقعها على خارطة الدرس العربي والذي لا يسمح بالانتفاع بها سوى في حدود علمية ضيقة منها الترقي الوظيفي الأكاديمي.

١-٢- ويتطلب وضع نظرية للأدب العربي قدرة فائقة على التنظير الأدبي. إن نظرة على أي مؤلَّف من مؤلفات نظرية الأدب الغربي توضح الثقافة الموسوعية والعميقة التي يتمتع بها مؤلفو هذه الكتب، وتتبعهم للشأن الثقافي لأمتهم، وتمكنهم من الخلفيات المعرفية لآدابهم، واستيعابهم روح ثقافتهم التي يُنظِّرون لأدبها. وهذا ما يفتقده نقدنا العربي الحديث، إذ يقل من النقاد من يمتلكون هذه الأدوات -وغيرها مما لم يذكر- مجتمعة، فضلًا عن انشغال الحياة الثقافية العربية ببريق الأنشطة الثقافية؛

المؤتمرات والندوات والمهرجانات...إلخ، وهي أنشطة -على أهميتها- فإنها جزئية في تكوين المنظرين للأدب العربي، فضلًا عن مشكلات البحث العلمي والوضع الأكاديمي عامة في مجتمعاتنا العربية والذي لا يتيح مثل هذا النظر العلمي الرصين.

٢- حدود نظرية الأدب العربي:

٢-١- سبقت الإشارة إلى أن نظرية الأدب العربي هي أوسع إطار نظري يضم قضايا درس الأدب العربي بفروعه الثلاثة الكبرى: تاريخ الأدب- النقد الأدبي- الأدب المقارن (وليست نظرية الأدب نظامًا ثالثًا قسيمًا لتاريخ الأدب والنقد الأدبي وثلاثتهم أنظمة دراسة الأدب كما عند رينيه ويلك الذي سبق ذكره). ويمكن وضع هذا المخطط للمكونات الكبرى لنظرية الأدب العربي في الشكل التالي:

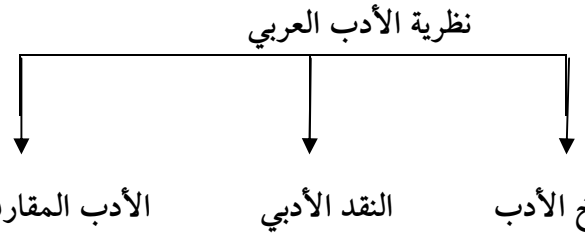

٢-٢- يندرج تحت كل قسم من هذه الأقسام الكبرى الثلاثة - والتي هي في حقيقتها المصادر الرئيسية التي تُستمد منها نظرية الأدب العربي- جملة من العناصر الفرعية والمتفرعة، التي تشكل القوانينُ العامة المستنبطة منها جميعًا مادةَ نظرية الأدب العربي. ويمكن وضع هذه العناصر الفرعية والمتفرعة في مسارات ثلاثة رئيسية: القضايا- العلاقات- السياقات.

أولًا: القضايا: وتضم إجمالًا القضايا التالية:

طبيعة الأدب- وظيفة الأدب- أجناس الأدب وأنواعه - ثقافة الأديب ودارس الأدب (المؤرخ الأدبي- الناقد الأدبي- دارس الأدب المقارن)- مدارس الإبداع الأدبي العربي- مدراس النقد الأدبي العربي(ومناهجه)- مدارس الأدب المقارن العربي- مدارس تأريخ الأدب العربي.

ثانيًا: العلاقات: وتضم إجمالًا ثلاثة أنواع:

أ- العلاقات بين الأعمال الأدبية والأفكار النقدية:

- داخل اللغة العربية: تطور فنون الأدب وأدواته، التناص أو السرقات الأدبية.
- بين العربية واللغات الأخرى: (لغات الشعوب الإسلامية غير العربية- اللغات الأوربية).

ب- علاقة الأدب العربي بالفكر والفنون والعلوم الإنسانية.

جـ- العلاقات بين المفاهيم الأدبية: مفاهيم: المبدع- النص- القارئ- مفاهيم: الإبداع- الثقافة- الأدب- مفاهيم: التطور- التغير...إلخ.

ثالثًا: السياقات: ويضم سياقين متفاعلين:

أ- السياق الثقافي العام: ومن عناصره: الوعي بالذات واقعا وتاريخا- الوعي بالآخر؛ تاريخه وسماته وآثاره.

ب- السياق المجتمعي: ومن عناصره: التربية- التعليم (قبل الجامعي والجامعي- البناء المجتمعي).

٣- آفاق نظرية الأدب العربي:

أما الآفاق التي يمكن أن تمتد إليها نظرية الأدب العربي، وهي إجمالًا قضايا متفرعة من المسارات الثلاثة السابقة، فمنها ما يلي:

٣-١- إعادة تقديم رؤية علمائنا ونقادنا العرب القدامى لقضايا الأدب الكبرى وهي: ما الأدب- وظيفة الأدب- مصادره إبداعًا ونقدًا- طرائق التكوين الأدبي (أدب الكاتب والشاعر والناقد)- قواعد النقد الأدبي وأصوله ومقاصده. وهذا يطرح بدوره سؤالًا عن إمكانية اعتبار وجود "نظرية أدبية" في التراث العربي من حيث توافر الإطار النظري والمنطلقات الأساسية (كالبحث في إعجاز القرآن الكريم والبحث عن علة استحسان الشعر عند النقاد والبلاغيين مثلًا)، وما هي الفروق بين هذه النظرية التراثية ونظرية الأدب العربي الحديثة المقترحة؟ وهل انطلاق الدرس الأدبي العربي القديم من رؤية عربية خالصة - مع استيعابه

لثقافات الأمم الأخرى كما هو معروف- وانطلاق المحدثين في قضايا الدرس الأدبي العربي من رؤية غربية، هل يصنع هذا فارقًا بين النظريتين؟

٣-٢- تأسيس مناهج نقدية للأدب العربي تستمد مفاهيمها النظرية وإجراءاتها التحليلية من الثراء العلمي الهائل في تحليل النصوص في التراث العربي؛ بدءًا بمناهج المفسرين في تحليل النص القرآني وما يرفده من علوم كعلم المناسبة الذي يمكن توظيفع لتأسيس منظور نقدي لدراسة بناء المعاني والدلالات في النص الأدبي، وعلم أسباب النزول الذي يمكن استخلاص بعض المفاهيم والإجراءات منه لتحليل السياق الأدبي، وكذلك شروح الحديث الشريف، إلى مناهج الأصوليين في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف، والتي قد بلغت الغاية في الضبط والإحكام والدقة المطلوبة لإجراءات تحليل النصوص الأدبية، إلى وقفات النحاة الدقيقة في تحليل الشعر ودلالته من خلال تحليل بنائه النحوي، إلى تحليلات البلاغيين للنصوص الأدبية شعرا ونثرا. هذا مع الانفتاح المعرفي على ماعند الآخر، ليس لـ"نقل" ما يقول بل لبناء الوعي به و"التعرف" على حدود منجزه المعرفي في مجال النظرية الأدبية بكل مكوناتها. وهي غاية جليلة ومهمة شاقة لكن انعكاسها على عمق التأصيل العربي للنظرية سيكون في غاية الأهمية لفتح مسارات جديدة في المثاقفة مع الآخر تتجاوز مستوى النقل المباشر و"الاستعارات المجانية" –بتعبير د. سعد البازعي- إلى مستوى الاستصفاء والتقطير لما يُنقل حفاظا على تماسك البناء المعرفي العربي.(٦٠)

٣-٣- قضايا الأدب الكبرى في القرنين ١٨، ١٩، باعتبارهما جسرًا زمنيًّا انتقل عليه الدرس الأدبي العربي إلى العصر الحديث. فتدرس أجناس الأدب الأصيلة والمستمدة من الثقافات الأخرى، وتطورها أو ثباتها أو اضمحلالها، والعوامل المؤثرة في كل ذلك.

٣-٤- قضايا الأدب العربي الكبرى في العصر الحديث من زاوية أثر العلاقة الثقافية بالآخر الغربي في تشكيل رؤية النقاد والدارسين العرب المعاصرين في

ق٢٠ لهذه القضايا، مع بناء الوعي بالأسباب التاريخية/ الحضارية لهذه العلاقة. وضرورة إعادة التأسيس الحضاري للأمة ثقافيًا وأدبيًا بشكل مغاير - بل مقاوم- لهذه الصورة الموجودة الآن للعلاقة بالآخر. ومن بين ما يُعاد تأسيسه: تصورات جديدة للعلاقة بالآخر الثقافي تفتح أبواب الانتفاع الحقيقي بمنجزه الثقافي، دون الإخلال بالبنيان الثقافي للأمة، على مستوى الأفراد وعلى مستوى الثقافة، لتجاوز هذا الوضع الراهن.

وتقتضي هذه الآفاق الثلاثة السابقة إعادة النظر جذريًا في مناهج تعليم اللغة العربية في المدارس والجامعات لإعداد جيل قادر على تحمل هذه الأعباء العلمية.

٣-٥- الصورة الذهنية عن الثقافة العربية لدى الآخر الثقافي (الغربي تحديدًا) ورؤيته للعربي إنسانًا وإبداعًا وثقافةً، وأسباب تشكل هذه الصورة، كل هذا تمهيدًا لمرحلة «التحرر الثقافي» من التبعية الذهنية للثقافة الغربية - كما يسميها د. سيد البحراوي في دراسته "التبعية الذهنية في النقد العربي الحديث"[٦١]- وفتحًا لطريق جديدة للدرس الأدبي العربي تهتم بذاتها وواقعها أكثر من – أومساويا على الأقل- انشغالها بالآخر، حيث أدت هذه التبعية الذهنية إلى إغلاق مناطق واسعة من الوعي بالذات وفتح مناطق أخرى من الوعي بالآخر وعيًا زائفًا حينًا وضيقًا حينًا وعميقًا حينًا ومشوَّهًا حينا.

٣-٦- علاقة الأدب العربي بآداب الشعوب الإسلامية غير العربية تأثيرًا وتأثرًا، وإعادة الاهتمام بهذا المسار الأكاديمي المهم، خاصة قضايا التأثير والتأثر بالأدب الفارسي، قبل الإسلام وبعده. وقد أشار د. غنيمي هلال في مواضع متعددة من كتابه "النقد الأدبي الحديث" إلى ذلك وإلى ضرورة تتبع هذه التأثيرات، وكذلك تتبع قضايا التأثير والتأثر بين الأدب العربي والآداب الأوربية مثل تأثير المقامة العربية في قصص الشطار الإسبانية وتأثير «حي بن يقظان» و«رسالة الغفران» في الأدب الأوربي [٦٢]، وكذلك تأثير الشعر الغنائي العربي في أشكال الشعر الغنائي الأوربي منذ عصر النهضة، حيث ساد الشعر الغنائي العربي العالم القديم ثم نقل إلى أوربا عن طريق الأندلس [٦٣]. ولابد من توجيه طلاب البعثات العلمية لتتبع حلقات هذا التأثير والتأثر.

٣-٧- دور الدرس الأكاديمي في إعادة تقديم الأدب العربي لطلاب المدارس والجامعات والمجتمع، لتأسيس وعي جديد بهذا الأدب (مثل الدور الذي قام به طه حسين وأحمد أمين في كتابهما "المنتخب من أدب العرب"، وغيرهما من أصحاب المختارات الشعرية).

وتأتي أهمية هذا الدور لمواجهة الغياب الظاهر للوعي لدى المتخصصين - فضلًا عن صناع القرار- بدور الأدب في بناء المجتمعات علميًا وإنسانيًا. وهو غياب لا يقتصر على الأدب فقط بل يشمل - للأسف الشديد- نظرة هؤلاء للعلوم الإنسانية عمومًا، والذي يظهر بوضوح في تصنيف الكليات الجامعية إلى كليات "قمة" تضم كليات العلوم البحتة أو التطبيقية (الطب- الهندسة- الصيدلة...) و - بمفهوم المخالفة- كليات «سفح» تضم من بينها الكليات التي تدرس العلوم الإنسانية عمومًا- باستثناء كليتي الاقتصاد والعلوم السياسية والإعلام. وحتى هذا الاستثناء يُفهم في السياقات السياسية والثقافية العربية المهترئة في هذا العصر. يضاف إلى ذلك اضمحلال دور الجامعات العربية في رصد مشكلات الواقع الثقافي والأدبي العربي وتقديم حلول لها.

٣-٨- تنشيط مجال دراسات تاريخ الأدب العربي: حيث اضمحل دور الأكاديميات في التأريخ الحقيقي للأدب العربي، ولم يفد الدرس الأدبي حتى الأن من العائدين من البعثات العلمية مناهجَ علمية جديدة لدراسة تاريخ هذا الأدب. وافتقار المكتبة العربية المعاصرة لجهود علمية رصينة ومتنوعة ومتتابعة في هذا المجال، نتيجة حالة «الركود» العلمي في جامعاتنا، الناتج عن ضعف الجامعات كمؤسسات منضبطة وكيانات فاعلة في حركة البحث العلمي وفي المجتمع. ونظرة على الرسائل الجامعية المتخصصة في دراسة تاريخ الأدب العربي تؤكد تناول قضايا تاريخ الأدب منعزلة عن أي تصور بحثي عام أو مشروع بحثي ينتقل خطوة إلى الأمام بهذه الدراسات، رغم قيمة هذه الدراسات الأكاديمية في حد ذاتها. وفي نفس الوقت عجز المجتمع غير الأكاديمي عن تقديم دارسين لتاريخ الأدب- مثلما قدم المجتمع في النصف الأول من ق٢٠

نموذجًا رصينًا كالرافعي في «تاريخ آداب العرب» - نتيجة تراجع واضمحلال هذا المجتمع ثقافيًا.

ويتسع أفق النظرية الأدبية العربية في مجال تاريخ الأدب حيث ينبغي أن يمتد هذا الدرس إلى الآفاق التالية:

أ- رصد حركة العمل الأدبي (القديم)الواحد عبر التاريخ، وعمليات النقد والتفسير والتذوق التي تعاورت عليه.

ب- متابعة نمو الأعمال الأدبية بتبويبها في مجموعات أصغر وأكبر، من حيث الكتاب والأجناس الأدبية والأساليب.

جـ- دراسة تطور سلسلة من الأعمال الفنية، وهو أكثر صعوبة لأن كل عمل فني يبدو مستقلًا، فلا يكون دراسته إلا بدراسة تطور وسائله الفنية. والموضوعات الثلاثة السلبقة مستفادة من حديث رينيه ويلك عن مهام المؤرخ الأدبي [٦٤].

د- دراسة تطور فنون الأدب وموضوعاته، وإعادة استثمار جهد مصطفى صادق الرافعي لاستخلاص منهجه وتعميقه.

هـ- دراسة تطور مفهوم الأدب ووظيفته في المجتمع العربي المعاصر، من خلال رصد هذا الواقع نفسه (نظرة على مناهج تعليم اللغة العربية- مساحات النشاط الثقافي في المجتمع- مساحات الأدب في المجلات والجرائد ووسائل الإعلام).

و- دراسة تطور أجناس الأدب العربي: وهذا الأفق يقتضي عدة خطوات منهجية خاصة بأجناس عديدة منه، منها:

- في مجال القصة: جمع وتصنيف كل أشكال «الحكي» العربي الشفاهي والمكتوب (وقد استبعده د. محمد غنيمي هلال من مفهوم القصة بالمعنى الفني)[٦٥]- تحديد الرسائل الاجتماعية والإنسانية التي كان يؤديها هذا «الحكي» في المجتمع العربي، مع تحليل أبنيته ومدى اقترابها من قواعد الفن القصصي- استقراء مصادر هذا القصص

قديمًا وحديثًا- تتبع تطور بعض عناصره في أشكال قصصية لاحقة- رصد تأثيره وتأثره بالآداب الأخرى الفارسية واليونانية والأوربية- تحقيق ما لم يحقق من مصادر هذا الحكي وتحقيق رواياته التاريخية.

- في مجال الأدب الشعبي: جمع أنواع الأدب الشعبي المختلفة ومنها الملاحم الشعبية والموال الشعبي وجعله تحت جنس الأدب الشعبي (المكتوب بالعامية) وتجمع المواويل الشعبية من المجتمعات العربية كافة وتكتب، مع شروح لكلماتها غير الواضحة- يبحث عن جذور هذه الفنون الشعبية وتطورها والعوامل المؤثرة في تطورها أو اندثارها- تستخلص قواعدها ونظامها الأدبي.
- وضع "أدب الأطفال" في موضعه المناسب على خارطة الأجناس الأدبية العربية، تأصيلا وتجميعا وتصنيفا وتفعيلا، لقيمته التربوية والاجتماعية والتعليمية. ومن أنواعه روايات الخيال العلمي للناشئة والروايات البوليسية، فضلا عن الشعر والمسرح والقصص القصيرة.
- في مجال الدراسات الأدبية: تصنيف الكتب والدراسات التي درست فنون الأدب العربي القصصي و المسرحي تاريخيًا وموضوعيًا ومنهجيًا، وتجمع نتائجها لاستخلاص المسارات العامة لهذه الفنون، وتوضع كل دراسة في موضعها من خريطة نظرية الأدب العربي.

ويكون أساس التصنيف في كل ذلك هو خصائص الشكل وقواعده المستقرة ثم مسارات تطوره من الداخل أي تطور أدواته الفنية، بعيدًا عن السياق السياسي أو الاجتماعي والتاريخي.

ز- ونظرية الأدب العربي المقترحة في حاجة بعدُ إلى تصنيف كل جنس من أجناس الأدب وكل نوع من أنواعه إلى طبقات فنية بناء على معايير فنية، ويمكن الاستئناس في ذلك بكتب الطبقات في التراث العربي، مثل «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي [٦٦].

ح- دراسة العلاقات بين الأعمال الأدبية: وهو ما يسمى بـ «السرقات الشعرية» في اصطلاح النقاد العرب القدماء و«التناص» في اصطلاح النقاد المعاصرين. وإن كانت السرقات في نظرية الأدب العربي المقترحة لن تقتصر على الشعر فقط بل ستشمل كل أجناس الأدب العربي. وهذا النوع من الدراسات هو جزء من تاريخ الأدب أيضًا كما ذكر رينيه ويلك [٦٧].

وتتدرج العلاقة بين الأعمال الأدبية من حيث نوع التأثر ودائرته؛ فمن حيث نوع التأثر تأخذ العلاقة بين النصوص أو الأعمال الأدبية درجات من التأثير هي الأصداء -وهي أيسرها كما يقول ويلك- ثم الاقتباسات والسرقات. ولجلال الدين السيوطي تفصيل بارع لأنواع «السرقات» ودرجاتها أورده في باب السرقات الشعرية" من آخر كتابه «شرح عقود الجمان». أما دائرة التأثر فهي تتدرج من أضيق دائرة وهي التناص بين الأعمال المفردة أو بين أديبين إلى العلاقة بين أعمال أدبية في عصور مختلفة، إلى المقارنة بين عصور أدبية مختلقة إلى مقارنة الأدب القومي (العربي هنا) بآداب قومية أخرى (داخل الأمة الإسلامية كالأدب الفارسي، أو خارجها كالآداب الأوربية الانجليزية أو الفرنسية وغيرها).

٤- خصوصية نظرية الأدب العربي:

٤-١- من المسلم به في الفكر الإنساني خصوصيةُ كل ثقافة في أنماط تفكيرها ونماذجها المعرفية وأنظمة إبداعها في كافة المجالات. ولا تمنعها هذه الخصوصية من الاستمداد من الثقافات الأخرى بما لا يتناقض مع بنيانها ولا طرائقها في التفكير والإبداع. يقول د. ميجان الرويلي "لقد تعودنا أن نفترض أن هدف النظرية هو إثراء الممارسة النقدية وإضاءتها، وأن النظرية تجعل ممكنًا تفسير الأعمال الأدبية المحددة تفسيرات أكثر تماسكًا ودقة. لكن كولر (جوناثان كولر صاحب كتاب "مدخل إلى النظرية الأدبية") قاوم كغيره هذا التوجه النظري التقليدي ليقرر أن النظرية اليوم وليدة بيئتها الثقافية الأيديولوجية، وليدة العرف المؤسساتي تحديدًا"[٦٨].

٤-٢- وإذا كانت هذه الخصوصية تتجلى في أنماط حياة الأمم المادية وحياتها المعنوية فإنها تتجلى في ثقافتها باعتبارها وجهًا من وجوه حياتها المعنوية. وإذا كانت "نظرية الأدب العربي" المقترحة جزءًا من الثقافة العربية باعتبارها مجالًا من مجالات الدراسة الأدبية فيها فإن خصوصية "نظرية الأدب العربي" تتجلى في عدة جوانب:

أ- تصنيف تاريخ الأدب العربي على أساس فني، باستمداد المعايير الفنية والأعراف الأدبية من طبيعة الإبداع الأدبي العربي نفسه، مفرداته وتراكيبه وأدواته البيانية وبنياته الكلية وموضوعاته وتقاليده الفنية المستقرة، ومعرفة متى بدأت هذه الأعراف والتقاليد وكيف تطورت وانتشرت وازدهرت أو اضمحلت وأسباب ذلك، في ضوء السياق الثقافي والاجتماعي. ثم تتبع كل ذلك على رقعة الإبداع العربي وفق تصنيفات محددة، بعيدًا عن التقسيم التاريخي/السياسي للأدب العربي الذي درجت عليه معظم دراسات تاريخ الأدب العربي.

ب- علاقة الأدب العربي بالفنون العربية: وهنا تُطرح جملة تساؤلات مهمة تجيب عنها "نظرية الأدب العربي" المقترحة: هل هناك علاقة فعلية بين الإبداع الأدبي العربي وباقي الفنون؛ الموسيقى والتصوير والنحت...إلخ؟ وأي درجة من درجات التفاعل بينهما انعكست على الإبداع الأدبي؟ أم إن علاقة الأدب العربي بالفنون كانت علاقة استدعاء دون تفاعل حقيقي ودون اشتراك في الأصول الفنية والفكرية؟ وهل كان ربط النقاد العرب القدامى بين الشعر وبين الصناعات (النسج والصباغة وصياغة الحلي والبناء) والفنون (النحت- التصوير- الموسيقى) هل كان تجليًا لعلاقة تفاعل مع هذه الفنون والصناعات أم كانت مجرد أمثال وشواهد على فكرة "البناء"؟ وكيف يمكن تفعيل دور الفنون المعاصرة في رفد الأدب إبداعا ونقدا.

جـ- علاقة الأدب العربي بالفكر والعلوم الإنسانية: ومن المعلوم أن العلوم الإنسانية الحديثة هي علوم غربية، أصولا ومناهج مفاهيم وقضايا. ومن

المعلوم أيضا في سياق محاولات البعث الحضاري المتناثرة على خريطة العالم العربي والإسلامي الجهود المتنوعة لتاسيس منظومة للعلوم الإنسانية تستمد أصولها ومفاهيمها ومناهجها وتطبيقاتها من واقع الأمة العربية الإسلامية ، عقيدة ونظما اجتماعية وثقافية اقتصادية وسياسية، ومسارا تاريخيا وحضاريا له خصوصياته المعروفة. مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم التربية والفكر السياسي والقانون الدولي. ويبقى تفاعل نظرية الأدب العربي المقترحة مع هذه المنظومة منذ مرحلة نشأتها وتأسيسها حتى تصل إلى مرحلة النضج والازدهار، تأثيرا وتأثر.(٦٩)

د- الأجناس الأدبية العربية: وقد أشار رينيه ويلك إلى خصوصية الأجناس الأدبية بكل ثقافة كالصينية والعربية والإيرلندية (٧٠). وتتجلى هذه الخصوصية عموما في ضرورة أن تكون معايير التصنيف وأسسه مرتبطة بالثقافة المعينة وخصوصيتها، ومن ثم عدم نقد ثقافة ما لأنها لم توافق ثقافة أخرى في أجناسها الأدبية. ومن ثم تتجلى هذه الخصوصية لنظرية الأدب العربي في استخلاص الفلسفة الفنية وراء الأجناس الأدبية العربية، وأسباب تطورها، أو اضمحلالها، وارتباط ذلك بالسياق العربي عمومًا. ثم رصد علاقة هذه الأجناس بعضها ببعض في تلاقحها أو تقاطعها وعلاقة ذلك بالسياق الثقافي العربي أيضًا.

هـ- إذا كانت النظرية الأدبية تناقش وظيفة النص الأدبي على المستوى الاجتماعي والثقافي كما يقول ديفيد بوشبندر (٧١)، فإن للنظرية الأدبية العربية خصوصيتها من جهة تناولها لوظيفة النص الأدبي على المستوى الاجتماعي والثقافي العربي. وهي خصوصية منبثقة من طبيعة النص الأدبي العربي في تشكله ودلالاته، ومن خصوصية المجتمع الثقافي المتلقي لهذا النص أيضًا؛ خصوصية العقيدة والنظام الأخلاقي والبناء المجتمعي.

و- من خصوصيات "نظرية الأدب العربي" المقترحة تجاوزها لمسألة اختلاف مستويات اللغة الأدبية عن لغة الحياة اليومية وكيفية إدراك القارئ للغة

الأدب مقارنة بالمستويات الأخرى للغة الشائعة في الثقافة، "وهي أحد العناصر الأساسية في معظم النظريات الأدبية، فبعض النظريات تجعل لها تميزًا وتفوقًا بينما تقلل نظريات أخرى من الاختلاف وإن كانت تقر بوجودها»[٧٢]. أما النظرية العربية فتتجاوز هذه القضية لانفصال لغة الإبداع، وهي العربية الفصحى - رغم تنوعات مستوياتها المعاصرة والقديمة- عن لغة الحياة اليومية، مما يصنع فارقًا في مناهج التحليل الأدبي الذي يستند إلى مستوى مستقر من اللغة هو المستوى الفصيح. ولا يتعارض هذا مع وجود الأدب الشعبي المكتوب بالعاميات العربية المختلفة، إذ حدود هذا الجنس الأدبي لا تسمح له ابتداءً بالتداخل مع المستوى الفصيح، ومن ثم يختلف في طرائق تناوله كأدب عن مناهج تحليل الأجناس الأدبية الأخرى في كثير من الإجراءات على مستوى الإفراد والتركيب والبنية والدلالة.

والجدير بالذكر في ختام الحديث عن خصوصية نظرية الأدب العربي المقترحة أن معظم الكتب العربية التي تحمل عنوان نظرية الأدب تتحدث عن نظرية الأدب الغربية، باستثناء إشارات جزئية جدًا للدرس العربي، وكان ينبغي لهذه الكتب أن تضيف كلمة «الغربي» أو «الغربية» لتحديد المقصود بنظرية الأدب. فعلى سبيل المثال هناك كتاب د. عبد المنعم تليمة «مقدمة في نظرية الأدب» الذي يحتوي كله على رصد الفلسفة الكامنة وراء الأدب الغربي وأجناسه وأنواعه.... وهكذا.

وإذ كان هذا مقبولًا في غيبة نظرية للأدب العربي ألا ينصرف الذهن إلا إلى النظرية الغربية فإن الأمل معقود أن يكون هذا إلى حين... حين يعكف الدارسون على بلورة نظرية للأدب العربي، حينها يكون النص على صفة النظرية أنها "عربيةٌ"... واجبًا.

قائمة المراجع

١. ابن منظور: لسان العرب. دار المعارف جـ٦.

٢. إيمانويل فريس وبرنار موراليس: قضايا أدبية عامة، آفاق جديدة في نظرية الأدب. سلسلة عالم المعرفة- فبراير ٢٠٠٤.

٣. تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب. ترجمة أحمد حسان. سلسلة كتابات نقدية ١١ سبتمبر ١٩٩١.

٤. ديفيد بُـشْبندر: «النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر». ترجمة عبد المقصود عبد الكريم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٦.

٥. رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة د. جابر عصفور. الهيئة العامة لقصور الثقافة- آفاق الترجمة(١).

٦. رينيه ويلك وأوستن واريـن: نظرية الأدب. ترجمة د. عادل سلامة. دار المريخ- الرياض. ١٩٩١.

٧. د.سيد البحراوى:- التبعية الذهنية فى النقد العربى الحديث فى مصر. مجلة أدب ونقد. ع ١٠٤. أبريل ١٩٩٤.
- البحث عن المنهج فى النقد العربى الحديث. دار شرقيات القاهرة.١٩٩٣.

٨. سيد قطب:- النقد الأدبي أصوله ومناهجه. دار الفكر العربي. د. ت.

٩. د.صالح زياد: في دلالة النظرية ونظرية الأدب. موقع الجزيرة الثقافية، شبكة المعلومات الدولية «الانترنت». ع ٣٧. الخميس ٢٧ جمادي الأولى ١٤٣٣هـ - ١٩ إبريل ٢٠١٢م.

١٠.د.عبد الملك مرتاض : نظرية ، نص ، أدب ، ثلاثة مفاهيم نقدية بين التراث والحداثة. قراءة جديدة لتراثنا النقدي . النادي الأدبي الثقافي بجدة مج الأول.

١١.د.عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب. الهيئة العامة لقصور الثقافة. سلسلة كتابات نقدية (٦٧) سبتمبر ١٩٩٧.

١٢.مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط. مكتبة

مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ -١٩٥٢م. مج ١جـ٢.
١٣.د.محمد عناني: الأدب وفنونه. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٧.
١٤.د.محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث. دار العودة، بيروت. ١٩٨٧.
١٥.د. مديحة جابر السايح: هوامش نقدية على "استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث" للدكتور سعد البازعي. مجلة حقول- النادي الأدبي الثقافي بالرياض. ع ٥. رمضان ١٤٢٨هـ- سبتمبر٢٠٠٧.
١٦.د.ميجان الرويلي: نظرية الأدب ما لها وما عليها. كتاب المؤتمر الدولي الأول للنقد الأدبي. القاهرة. أكتوبر ١٩٩٧. الطبعة الأولى ١٩٩٩.

الهوامش والإحالات

[١] انظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط. مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية١٣٧١هـ -١٩٥٢م. مج ١جـ٢ مادة «نظر»، وانظر كذلك:ابن منظور:لسان العرب.دار المعارف جـ٦.

[٢] د. عبد الملك مرتاض : نظرية ، نص ، أدب ، ثلاثة مفاهيم نقدية بين التراث والحداثة. قراءة جديدة لتراثنا النقدي . النادي الأدبي الثقافي بجدة مج الأول ؛ص٢٦٠ . ويشير د. مرتاض إلي أن رواج المصطلح في اللغات الأوروبية الحية لم يحدث إلا في القرن الخامس عشر الميلادي. انظر ص ٢٥٨.

[٣] د. جميل صليبا: المعجم الفلسفى بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني بيروت ج٢ ١٩٨٢ ص٤٧٧.

[٤] د. صالح زياد: في دلالة النظرية ونظرية الأدب. موقع الجزيرة الثقافية، شبكة المعلومات الدولية «الإنترنت». ع. ٣٧. الخميس ٢٧ جمادي الأولى ١٤٣٣هـ - ١٩ إبريل ٢٠١٢م.

[٥] د. صالح زياد: في دلالة النظرية ونظرية الأدب. وانظر: تتبعه معاني الكلمة في الثقافة الغربية منذ ق١٦م.

[٦] رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ترجمة د. عادل سلامة. دار المريخ- الرياض. ١٩٩١. ص١٠.

[٧] رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة د. جابر عصفور. الهيئة العامة لقصور الثقافة- آفاق الترجمة (١). ص١٧.

[٨] انظر: السابق ص١٧- ١٩.

(٩) ديفيد بُشْبندر: «النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر». ترجمة عبد المقصود عبد الكريم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٦. ص١٤.

(١٠) ديفيد بشبندر:السابق. ن ص.

(١١) انظر: د. صالح زياد: دلالة النظرية والنظرية الأدبية.

(١٢) على سبيل المثال: احتوى كتاب د. جابر عصفور «نظريات معاصرة»- وهي نظريات غربية بالضرورة- على النظريتين الأخيرتين، وجاء عنوان أحد مجلدات المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي (النقد الأدبي على مشارف القرن) المنعقد في القاهرة في نوفمبر ٢٠٠٠م بعنوان «نظريات التلقي والتأويل».

(١٣) انظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة. ص٢١- ٢٢.

(١٤)رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة: ص٢٣. ولقراءة مفصلة عن هذه النظريات يرجع إلى: د. سعد عبد الرحمن البازعي ود. ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي. ط الثانية سنة ٢٠٠٠، و د. محمد عنانى: المصطلحات الأدبية الحديثة، دراسة ومعجم إنجليزى عربى، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

(١٥) ديفيد بشبندر: النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر. ص١٣.

(١٦) انظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة. ص١٩.

(١٧) انظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة ص٢٠.

(١٨) انظر: السابق، ن ص ، وبشبندر النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر. ص١٤.

(١٩) جوناثان كلر: في تقديمه لكتاب «شعرية النثر» لتزفتان تودوروف، نقلًا عن: د. ميجان الرويلي: نظرية الأدب ما لها وما عليها. كتاب المؤتمر الدولي الأول للنقد الأدبي. القاهرة. أكتوبر ١٩٩٧. الطبعة الأولى ١٩٩٩. ص٥٧.

(٢٠) انظر: تقديم د. عادل سلامة لكتاب «نظرية الأدب» لرينيه ويلك وأوستن وارين. ص١٠- ١١.

(٢١) السابق. ص١٠.

(٢٢)انظر: السابق ن ص.

(٢٣) إيمانويل فريس وبرنار موراليس: قضايا أدبية عامة، آفاق جديدة في نظرية الأدب. سلسلة عالم المعرفة- فبراير ٢٠٠٤، ص١٣- ١٤.

(٢٤) د. صالح زياد: في دلالة النظرية ونظرية الأدب.

(٢٥) انظر هذه الفكرة: د. صالح زياد: في دلالة النظرية ونظرية الأدب.

(٢٦) انظر: تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب. ترجمة أحمد حسان. سلسلة كتابات نقدية ١١ سبتمبر ١٩٩١. ص٩

[٢٧]انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص١٥.

[٢٨] انظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة. ص١٨.

[٢٩] انظر: د. صالح زياد: في دلالة النظرية والنظرية الأدبية.

[٣٠] انظر: د. صالح زياد:السابق.

[٣١] د. صالح زياد: في دلالة النظرية والنظرية الأدبية.

[٣٢] د. صالح زياد:السابق.

[٣٣] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص٥٨.

[٣٤] السابق ص٥٩.

[٣٥] ديفيد بشبندر: النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر. ص١٤.

[٣٦] انظر: ديفيد بشبندر: النظرية الأدبية المعاصرة وقراءة الشعر. ص١٥.

[٣٧] انظر: ديفيد بشبندر:السابق. ن ص.

[٣٨] رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص٣٥٥.

[٣٩] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين:السابق. ص٣٥٧- ٣٥٨.

[٤٠] د. عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب. الهيئة العامة لقصور الثقافة. سلسلة كتابات نقدية (٦٧) سبتمبر ١٩٩٧. ص١٢٨.

[٤١] د. عبد المنعم تليمة:السابق. ص١٢٩- ١٣٠.

[٤٢] د. عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب. ص١٣٠.

[٤٣] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص٣٥٥.

[٤٤] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص٣٥٢- ٣٥٣.

[٤٥] رينيه ويلك وأوستن وارين: السابق. ص٣٥٣.

[٤٦]رينيه ويلك وأوستن وارين: السابق.ن ص.

[٤٧] انظر: السابق. ص٣٥٨.

[٤٨] انظر:السابق. ص٣٥٩.

[٤٩] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين:نظرية الأدب. ص ٣٥٩ .

[٥٠] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين:السابق. ص٣٦١.

[٥١] انظر: السابق. ص٣٦٠- ٣٦١.

[٥٢] انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص٣٦٧.

[٥٣]انظر: رينيه ويلك وأوستن وارين:السابق. ص٣٦٦- ٣٦٧.

[٥٤] السابق. ص٣٦٨.

[٥٥]رينيه ويلك وأوستن وارين: نظرية الأدب. ص٣٦٩.

(٥٦) انظر: السابق. ص٣٦٩.

(٥٧) انظر:السابق. ص٣٧٠.

(٥٨) انظر: السابق. ص ن.

(٥٩) انظر: د. صالح زياد. دلالة النظرية ونظرية الأدب.

(٦٠) راجع تفصيل هذه الرؤية في التعامل مع الثقافة الغربية: د. مديحة جابر السايح: هوامش نقدية على "استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث" للدكتور سعد البازعي. مجلة حقول- النادي الأدبي الثقافي بالرياض. ع ٥. رمضان ١٤٢٨هـ- سبتمبر٢٠٠٧. ص١٤٥- ١٥٤.

(٦١) د.سيد البحراوى: التبعية الذهنية فى النقد العربى الحديث فى مصر. مجلة أدب ونقد. ع ١٠٤. أبربل ١٩٩٤. ص٥٤، وانظر له: البحث عن المنهج فى النقد العربى الحديث. دار شرقيات القاهرة.١٩٩٣. هامش ص١٤.

(٦٢) انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث. دار العودة، بيروت. ١٩٨٧.ص٥٢٤- ٥٣١ وانظر الهامش رقم ٣ ص٥٢٧، وص ٥٠٨- ٥١١، ٢٢٩- ١٣٠.

(٦٣) انظر: د. محمد عناني: الأدب وفنونه. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٧. ص٦٦.

(٦٤) انظر: رينيه ويلك: نظرية الأدب. ص٣٥٥.

(٦٥) انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث. ص٥٢٤. وقد استبعد د. غنيمي هلال: الحكايات والقصص الشعبي- الروايات التاريخية- الأساطير- القصص الغزلي كأخبار العذريين. ومن المعلوم صدور العديد من الدراسات التي تتناول أشكال الحكي في التراث العربي، ويبقى تصنيفها واستكمال مسارها.

(٦٦) قدم سيد قطب تصنيفًا طبقيًا للشعراء العرب القدماء والمحدثين، متخذًا «قوة الروح الشعري» معيارًا لهذا التصنيف. انظر: النقد الأدبي أصوله ومناهجه. دار الفكر العربي. د. ت.ص٥٥-٦٩.

(٦٧) انظر: رينيه ويلك: نظرية الأدب ص٣٥٧.

(٦٨) د. ميجان الرويلي: النظرية الأدبية ما لها وما عليها. ص٥٧.

(٦٩) من الجهود الملموسة في هذا المجال إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وهي جهود علمية تصب في تأسيس هذه المنظوم من العلوم الإنسانية برؤية عربية إسلامية أصيلة.

(٧٠) انظر: رينيه ويلك: نظرية الأدب. ص٣٢٥.

(٧١) انظر: ديفيد بوشبندر: النظرية الأدبية المعاصرة. ص١٥.

(٧٢) ديفيد بوشبندر:السابق. ص١٧.